"الحتمية الجغرافية التاريخية عند ابن خلدون "
العامل الجغرافي البحت

إعداد

أ/ محمد رضا محمد محمد مسعود

دورية الانسانيات . كلية الآداب . جامعة دمنهور
العدد التاسع والخمسون – يوليو – لسنة ٢٠٢١

الحتمية الجغرافية التاريخية عند ابن خلدون .... العامل الجغرافي البحت "

أ/ محمد رضا محمد محمد مسعود

المقدمة :-

يعد ابن خلدون واحدا من أهم مفكري الحضارة الاسلامية ،بما قدمه من افكار ، ونظريات ،بشأن العمران البشري ،و أصوله الاجتماعية ،و أثر العوامل المادية في المجال الانساني ،والأخلاق ،و التربية ،وكذَلك تطور الكائنات الحية . وقد حاول ابن خلدون بشكل أو بأخر فهم الظواهرالاجتماعية على أسس موضوعية ،تجعل للعوامل المادية ، و الجغرافية ،و الاقتصادية ،دورا في نشأة المجتمعات ،و ارتقائها ،واضمحلالها ،دون الإكتفاء فحسب بدور العوامل المثالية ،أو الاقتصار على ما "ينبغي أن يكون ".وبهذًا فإنه قدم مساهمة هامة في تاريخ الحضارة الإسلامية ، وذَلك باستبعاده أن تكون الأحكام المعيارية أساس الظواهر الاجتماعية الأساسية .وهكذًا اعتقد ابن خلدون في فكرة عامة عن أن حياة البشر ،ووقائع العمران البشري ، وأحوال الاجتماع مؤسسة على "قوانين معينة ،يمكن دراستها وربما التحكم فيها " وهو ما دعا عددا من الباحثين والمفكرين المعاصرين إلى اعتبار ابن خلدون مؤسس علم العمران البشري ،بما يقوم عليه أي علم في مفهومنا الحديث على قوانين ،أو فكرة عامة عن القانون المستقل عن الحكم الميعاري .

ويتناول هذًا البحث الحتمية البيئية عند ابن خلدون وتأثيرها على تشكيل حياة الانسان من جميع الاتجاهات ،من حيث الطعام والشراب والعمل ولون البشرة وتكوين الجسم الى غير ذَلك ، وتشمل نظرية الحتمية الجغرافية العديد من الأراء التي تحدثت عن هذَه النظرية كما ورد في البحث ،بالاضافة الى تعريف الحتمية الجغرافية قديما وحديثا وتشمل هذَه الفكرة أراء كلا من الفلاسفة الاغريق والعرب والرومان .

ويشمل هذًا البحث أيضا نشوء المدينة ومراحل تطورها وموضع المدينة ، والعلاقة بين المدينة واقليمها والتصنيف الوظيفي للمدن ،بالاضافة الى التهيئة الحضرية و أوبئة البيئة عند ابن خلدون وأثر البيئة في الجغرافية في تكوين الأمراض ،أو تكوين الصحة النفسية ،ويسمى الأبعاد النفسية و الصحية للبيئة عند ابن خلدون ،وقسم ابن خلدون المعمورة الى سبعة أقاليم ،ويتمتع كل اقليم بسمات مختلفة عن الاقليم الأخر .

كما تناول فكر ابن خلدون نظرية العصبية و التي توضح العلاقة بين الشعور الجمعي القومي ، وبين قيام الدول أو علاقة القومية بالقيام ،فالحتمية الجغرافية عند ابن خلدون لها تأثير كبير غلى تكوين المدن و الدول وتشكيل حياة الانسان وحرفهم وقوت يومهم .

وقدم ابن خلدون كذلك ما عرف ب "نظرية العصبية " ، والتي توضح طبيعة العلاقة بين الشعور الجمعي القومي ، وبين قيام الدولة ، أو علاقة القومية بالقيام . وقد اتضح ذلك وتبلور في العلاقة الطردية ، التي أوضحها ابن خلدون ، بين العصبية والمُلك ، كما نجد في الباب الثاني في الفصل المعنون ب " في أن المُلك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية[١]. وهي نظرية ترى أن قوة الدولة مبنية على قوة العصب ، بمعنى الأصل العرقي ، وأن ضعفها ، ثم انهيارها إنما بسبب تنوع الأعراق ضمن أسباب أخرى بالتأكيد ، كما نجد في الفصل المعنون ب "فصل في أن الأوطان الكثيرة والقبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة .[٢]. ونظراً لأن العصبية تستحكم أكثر ، وتقوي في المجتمعات البدوية ، والوحشية فقد أشار ابن خلدون كذلك إلى القدرة النسبية لهذه المجتمعات على تأسيس دولة قوية ، أو السيطرة على دولة قائمة ، إذا تمكنت من تكوين عصبية كافية واهتدت بسياسة معينة [٣].

أهم المصطلحات :

١- الأخلاق Ethcis

ويعني هذا المصطلح عند القدماء ملكة تصدر بها الأفعال من غير أن تقدم رؤية وفكر وتكلف ، فغير الراسخ من صفات النفس لا يكون خلقا (جميل صليبا :المعجم الفلسفي ،دار الكتاب اللبناني ،ج١ ص ٤٩).

٢- الجغرافيا . Geography

تعريف الجغرافيا بأنها علم وصف الأرض هو أقدم تعريف لها ،بل أنه التعريف المستمد من المعنى الحرفي لكلمة " جغرافية " المشتقة من الجذور الاغريقية –geo بمعنى الأرض و Graphyوتعني وصف . والمعنى الاجمالي هو وصف الأرض (رضا محمد السيد : المدخل إلى الجغرافيا العامة ، الأكاديميون للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ،ط١ ،٢٠١٦ ، ص ١٦).

٣- التطور Evolution.

تحولات مشتملة على سلسلة من المراحل ، يمكن التدليل المُسبق على تعاقبها (أندرية لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، تعريف خليل أحمد خليل ، إشراف أحمد عويدات ، منشورات بيروت – باريس ،ط١ ،٢٠٠١ ،ص ٣٧٩).

٤- التطورية (النشوئية ، الارتقائية) Evolutionism .

[١] ابن خلدون ،عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، اشراف عام :داليا محمد ابراهيم ،دار نهضة مصر للنشر ،القاهرة ،ط١ ،٢٠١٤ :٥١٤/٢

[٢] المصدر السابق :٥٢٨/٢

[٣] المصدر السابق :٤٩٢/٢

منظومة فلسفية أو علمية مرتكزة على فكرة التطور بكل معاني الكلمة (أندرية لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، تعريب خليل أحمد خليل ، إشراف أحمد عويدات ،منشورات عويدات ، بيروت – باريس ،ط ١، ٢٠٠١ ،ص ٣٨١.

٥- سلوك Behavior .

عند علماءالنفس المحدثين مجموع ما يقوم به الكائنات الحية من ردود فعل مترتبة على تجاربه السابقة ، سواء كانت مشتركة بين أفراد النوع ، أم خاصة بفرد آخر (جميل صليبا : المعجم الفلسفي ،دار الكتاب اللبناني ، ج١ ، ص ٦٧١).

"الحتمية الجغرافية – التاريخية عند ابن خلدون"

"العامل الجغرافي البحت "

ويُمكننا أن نعرض في هذا البحث رؤية ابن خلدون الجغرافية و ارتباطها بالحتمية الجغرافية والتاريخية.

وسوف نعرض ماذا تعني "الحتمية الجغرافية "البيئية " عند العديد من المفكرين ؟

١- نظرية الحتمية البيئية (Determinism):

ويقر أصحاب هذه النظرية ان الانسان يخضع بكل ما فيه للبيئة فهي التي تسيطر عليه وليس العكس كما يتردد ويشيع, فالبيئة بما فيها من مناخ معين وغطاء نباتي وحياة حيوانية تؤثر علي الانسان من مختلف الجوانب ومثال علي ذلك :تاثير البيئة علي عظام الانسان, فإذا كان الانسان يعيش في بيئة جبلية يكون تأثيرها بالإيجاب علي تقوية عضلات الأرجل .. أما إذا كانت بيئة بحرية فهي تقوي عضلات اليدين. وقد أدي هذا التأثير المتباين والتناقض الواضح بين الشعوب وخاصة بين الآسيويين والأوروبيين والذي استرعي انتباه الفلاسفة منذ القدم إلي ظهور نظرية الحتمية لتفسير هذا التناقض.

ويتضح لنا من هذه الفكرة السابقة أن البيئية لها أثر كبير على تكوين البشر من حيث الجسم أو البشرة ، وطبعية تكوين عضلات اليدين وطبيعة العمل الذي يقوم به الانسان ،فنجد البلاد الباردة لها أعمال معينة تختلف عن طبيعة العمل في البلاد الحارة ،كما يوجد اختلافات في لون البشرة بين البلاد الحارة والبلاد الباردة ،فيما يسمى بالحتمية الجغرافية.

- ابن خلدون :

وقد اختص ابن خلدون في تفسير علاقة الانسان ببيئته عن أثر المناخ في طبائع الشعوب وتأثير الهواء علي الوان البشر, وضرب مثلاً علي ذلك بشعوب السودان والذي وصفهم بالخفة والطيش وكثرة الطرب والسبب في ذلك الحرارة التي تجعلهم أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً.

كما تحدث ابن خلدون عن الأقاليم الجغرافية وتأثيرها في حياة الانسان حيث يري أن هناك سبعة أقاليم، وتتميز الأقاليم من الثالث والرابع والخامس بالإعتدال الذي يُميز طبائع سكانها أيضاً والوانهم ، أما

الأقاليم غير المعتدلة تلك التي تقع في الأول والثاني والسادس والسابع فسكانها متوحشون غير مستانسين.[٤]

يحاول ابن خلدون أن يُبن لنا من خلال فكرة الحتمية الجغرافية ،في ضوء عرضة لمثال السودان في البلاد الحارة حيث يغلب عليهم الفرح والسرور و الخفة ،ويرجع ذلك إلى الحتمية الجغرافية التي تقع فيها أرض السودان والتي تتسم بالحرارة ، أما عن تقسيمة للأقاليم فقسم المعمورة إلى سبعة أقاليم حيث تتسم الأقاليم الثالث والرابع والخامس بالإعتدال في طبائع و الوان وأخلاق البشر ، أما الأقاليم غير معتدلة وهو الإقليم الأول والثاني و السادس والسابع ، يتصفون بالتوحش وعدم الإعتدال في طبائهم و أخلاقهم وصفاتهم و ألوانهم .

<u>– ارسطو (٣٨٤–٣٢٢ ق.م):</u>

تناول أرسطو في كتابه عن "السياسة" الفرق بين سكان المناطق الباردة في أوروبا وسكان آسيا, فسكان أوروبا بالنسبة له يتميزون بالشجاعة التي كانت أساس حريتهم لكنهم غير ماهرين في الإدارة والفهم والتنظيم وبالتالي يفتقدون إمكانية السيطرة أو الإمساك بزمام الأمور، أما سكان آسيا فلديهم الفكر والمهارة الفنية لكنهم يفتقرون إلي الجرأة مما جعلهم محكومين بغيرهم.

أما الإغريق في ذلك الوقت كانوا يعيشون في منطقة وسط بين الآسيويين والأوروبيين مما جعلهم يجمعون بين مميزات المجموعتين . وضرب أرسطو ثلاثة أمثلة عن الحتمية الجغرافية هما أسيا و أوربا والإغريق ،

حيث يتحدث أرسطو عن سكان أوربا ويقول أنهم غير بارعين في فن الإدارة والفهم والتنظيم وبالتالي يفتقدون السيطرة على المواقف والمشكلان التي تواجههم ،بعكس سكان أسيا فهم عكس ذلك تماما فهم لديهم الفكر و المهارة الفنية تجعلهم قادرين على تنظيم أمورهم والسيطرة على المواقف والمشكلات و الأحداث التي تواجههم في الحياة ،أما النموذج الثالث و هو الإغريق ،حيث يرى أرسطو أن وقوع مكانهم بين أوربا و أسيا جعلهم يجعمون بين مميزات أسيا و أوربا ويتعدون عن الأخطاء و المساوئ الموجودة في كلا الفريقين .

<u>– هيبوقراط (٤٢٠ ق.م):</u>

وكانت الإيماءة في كتابه "الجو والماء والأقاليم", إن سكان الجبال المعرضين للأمطار والرياح يتصفون بالشجاعة وطول القامة والطباع الحميدة أما سكان الأقاليم المكشوفة الجافة يتصفون بنحافة القامة وحب التحكم.

<u>– مونتسكييه:</u>

تحدث مونتسكييه في كتاب "روح القانون" عن أثر المناخ والتربة في حياة الانسان:

---

[٤] عبد الفتاح وهيبة ، جغرافيا الانسان ، دار النهضة العربية للنشر ، بيروت ،لبنان ، ١٩٨٠ م ، ص ٩

١- المناخ:

المناخ البارد: شجاعة- نقاء النفس- قوة جسدية.

المناخ الحار: جبن- مكر- ضعف.

٢- التربة:

يصل تأثير التربة إلي الحد السياسي ونوع الحكومات:

- التربة الخصبة = نظام ملكي وديكتاتورية.

- التربة الفقيرة = نظام جمهوري وديمقراطية.

- سكان الجُزر = الإستقلالية والإستقرار.

مما لا شك فيه أن مونتسكيه هو أحد أعلام الجغرافية البيئية ،لأنه لدية مهارة فائقة في توصيف طبيعة البيئية وطبيعة ساكنييها،حين عرض في كتابه روح القوانين طبيعة المكان والمُناخ و تأثيرها على حياة البشر ، حيث قال أن المناخ البارد سُكانه يتصفون بالشجاعة والقوة ونقاء النفس وقو الجسد ،أما المناخ الحار فسُكانه يتميزون بالجبن و المكر وضعف قوة الجسد بسبب كثرة الحر مما يؤثر على أمزجتهم وطبيعة عملهم .

كما نجد مونتسكيه أيضا يقسم أنواع الحكومات من خلال التربة نفسها ، فهذا التقسيم البارع من مونتسكيه جعله أعلى فلاسفة الحتمية الجغرافية ، حيث يرى أن التربة الخصبة تنتج نظام حكم ملكي ديكتاوري ، والتربة الفقيرة التي لا تنتج محاصيل كثيرة نظام الحكم فيها جمهوري ديمقراطي ،وسُكان الجُزر يميلون إلى الإستقلالية والإستقرار والهدوء ولا يميلون إلى أنظمة الحكم السابقة .

- شارلز داروين:

وبظهور نظرية النشوء والإرتقاء لداروين والتي ترجع فيها نشاة الا

سنسان وتطوره إلي البيئة الطبيعية, أدت إلي دفع نظرية الحتمية البيئية إلي الأمام أكثر أكثر.[٥]

في حقيقة الأمر أن داروين تحدث عن عملية النشوء والإرتقاء بالنسبة للانسان وتطور الانسان في البيئة ، وتحدث عن الانسان منحدر من أصل القردة ،هل هذه الفكرة التي تحدث عنها داروين وهي الانسان أصله قرد هي فكرة صحيحة ؟ هذا ما يتضح لنا في نتائج الرسالة ، وهل تتطرق ابن خلدون إلى هذه الفكرة أيضا ؟ ومن خلال أفكار داروين ظهر بعدها العديد من العلماء التي تؤيد نظرية الحتمية ومنهم:

- بكل(Buckle):

---

[٥] المرجع السابق ص ١٠

– واستند في برهانه علي ثلاثة عوامل تتصل بالبيئة من: مناخ– غذاء– تربة، وهي عوامل مؤثرة علي الحضارات الانسانية المختلفة التي وجدت منذ قديم الأزل.

ا– فالحضارة في افريقيا وآسيا تأثرت بخصوبة التربة.

ب– والحضارة الأوروبية تأثرت بالمناخ ، فالحرارة الشديدة تعوق العمل بينما المعتدلة فهي منشطة, ومع توافر الغذاء ورخصه يتوافر العمل وتقل الأجور والعكس صحيح.

ج– أما الحضارة المصرية والهندية والصينية فهي من أكثر الحضارات المزدهرة لتوافر الحرارة الملائمة والتربة الخصبة.

يحاول العالم "بكل "أن يوضح لنا أن هناك ثلاثة عوامل رئيسة مرتبطة بالبيئة مثل التربة والغذاء والمناخ و يرى أن هذه العوامل الثلاثة مرتبطة ارتباطا شديدا في تكوين الحضارات ، وعرض لنا ثلاثة حضارات ، فالحضارة في أفريقيا و أسيا مرتبطة في تكوينها بخصوبة التربة ،والحضارة في أوربا مرتبطة بالمناخ ،حيث أن حرارة المناخ تعوق بناء الحضارة ، أما اذا كان المناخ معتدلاً فهو يساعد على بناء الحضارة بالإضافة إلى الغذاء إذا كان ثمنه رخيصا فإنه يساعد على توافر العمل وتقل الأجور والعكس صحيح ،إذا كان ثمن الغذاء سعره باهظا فإنه يؤثر على الحياة بكل أشكالها .أما بالنسبة للحضارة المصرية فهي مرتبطة في تكوينها بنهر النيل والتربة الخصبة كذلك الحضارة الهندية والصينية مرتبطة في تكوينها بإعتدال المناخ وخصوبة التربة .

<u>– فيكتور كزن (Victor cousin):</u>

وتتلخص استنتاجاته في العبارات التالية التي تعبر عن وجهة نظره في العلاقة البيئية – الإنسانية:

"ايقول فيكتوركزن "أعطني خريطة لدولة ما، و معلومات وافية عن موقعها ومناخها ومائها ومظاهرها الطبيعية الأخري ومواردها وبإمكاني في ضوء ذلك ان أُحدد لك أي نوع من الانسان يمكن أن يعيش في هذه الأرض, وأي دولة يمكن أن تنشأ علي هذه الأرض, وأي دور يمكن أن تُمثلهُ هذه الدولة في التاريخ".[٦]

، ويتحدث فيكتور كزن برؤية ثاقبة عن طبيعة المكان والمناخ ، ويحاول أن يعرض لنا قدرته على توريع البشر ،إذا كان على معلومات وافية عن موقع و مناخ مكان معين ، و يُحدد أي نوع من البشر يسكنه .

<u>٢– * نقد نظرية الحتمية البيئية:</u>

١– النقد الأول: عدم المنطقية ، صحيح أن البيئة تعد إحدي العوامل الهامة التي تؤثر علي الإنسان لكنها ليست العامل الوحيد أو المنفرد فهناك العديد منها وليس من المنطقي أن نقر بحتمية أي عامل من العوامل التي يخضع لها الانسان في حياته سواء كانت عوامل اجتماعية أو تاريخية, أو حتي بيئية بمفهومها الأعم والأشمل.

---

[٦] المرجع السابق ص ١١

٢- النقد الثاني: التطور التكنولوجي.. يلعب التطور التكنولوجي دوراً اساسياً في الحد من العوائق البيئية فمثلاً بعض البلدان التي يفرض موقعها عليها العزلة مثل البلدان مترامية الأطراف ، فبفضل التقدم التكنولوجي الهائل الذي وصلت إليه أصبحت غير معزولة بتقدم وسائل المواصلات والإتصال.

٣- النقد الثالث: أهمية دور التاريخ والحضارة : يحد التاريخ والحضارة من سيطرة البيئة علي الانسان حيث توجد بعض الدول تتشابه في ظروفها البيئية ولكن تاريخها وحضاراتها لهما دور أساسي يختلف تماماً عن الدول المتشابهة معها في ظروفها البيئية.

في حقيقة الأمر أن النقد الموجه إلى الحتمية البيئية عرض عدة أفكار أثارها العلم المعاصر في تعامل الإنسان مع البيئة حيث مرت علاقة الانسان بالبيئة بخمس مراحل المرحلة الاولى مرحلة التقديس و التأليه ،الثانية التفسير والتوظيف ،الثالثة الإستغلال و السيطرة ، الرابعة القهر والإستبداد ،الخامسة الإحترام و الصون وهي المرحلة التي نعيشها الآن.

فالنقد الأول أغفل الحتمية الإجتماعية والتاريخية بالنسة للانسان واقتصر فقط على الحتمية الجغرافية ، النقد الثاني أن الحتمية الجغرافية أصبحت تتلاشى رويداً رويداً بسبب التقدم العلمي الهائل في شتى المجالات مما أصبح العالم أشبه بقرية صغيرة مما يسمى بعصر العولمة أو عصر الانترنت والروبوتات ،والتقدم في وسائل الموصلات والاتصالات ،والنقد الثالث يؤكد على أهمية التاريخ والحضارة ودورها في الحفاظ على البيئة ، حيث تتشابه الدول في موقعها الجغرافي ولكن تختلف تاريخياً وحضارياً عن بعضها البعض.

وإذا نظرنا إلى مفهوم الحتمية الجغرافية قديما وحديثا نجد أن تأثر الأنسان بظروف بيئته الطبيعية في أعماله وصفاته العقلية والجسدية موضوع قديم شغل فكر كثير من الناس وكثيرمن الفلاسفة الإغريق ،والرومان والعرب . هذه الحتمية القديمة لم تكن أكثر صرامة من الحتمية التي ظهرت في العصر الحديث ونادى بها أصحاب الإتجاهات الجغرافية العميقة التي تدرس الواقع الجغرافي .

تمر الجغرافيا البشرية "أو الجغرافيا الاجتماعية " كما يفضل البعض أن يسميها من الجغرافيين – بفترة حرجة منذ أن انتصف هذا القرن وذلك لإختلاف وجهات النظر بشأنها ، فمن الجغرافين من ظلت نظرته اليها نظرة كلاسيكية "ومنهم – وهم – كثرة –" من اكتشف لها بعض المعاني والمرامي الجديدة وإن كان لم يغير قاعدة من قواعدها المعروفة.

٣- " الحتمية الجغرافية قديما وحديثا ":-

إن تأثر الانسان بظروف بيئته الطبيعية في أعماله وفي صفاته العقلية والجسدية موضوع قديم شغل كثيراً من الفلاسفة والكتاب الإغريق والرومان والعرب .وهذه الحتمية القديمة لم تكن أكثر صرامة من الحتمية التي ظهرت في العصر الحديث ونادى بها علماء الإجتماع أمثال " بكل ١٨٢١- ١٨٦٢" م، ولبلاي

١٨٠٦– ١٨٨٢"م، وديمولان ، وجغرافيون كرتر ١٧٧٩ ، ١٨٥٩ م، ورتزال ١٨٤٤ – ١٩٠٤م، وتلميذته مس سمبل ١٨٨٦٣ – ١٩٣٢م.

إن الحتمية الجغرافية القديمة لم تكن أكثر صرامة من الحتمية التي ظهرت في العصر الحديث التي نادى بها علماء الإجتماع أمثال "بكل "، وديمولان ، وجغرافيون كرتر ، و رتزال ، وتلميذته مس سمبل[٧] إن تأثر الانسان بظروف بيئته الطبيعية في أعماله وصفاته العقلية والجسدية موضوع قديم شغل فكر كثير من الفلاسفة والكتاب والإغريق والرومان والعرب من بين ما قيل في هذا الموضوع "أن سكان الأقاليم الجبلية طوال يتصفون بالشجاعة و الخلق بينما سكان السهول نحاف قصار القامة شقر البشرة "– هيبوقراط "القرن الخامس ق.م ." "إن سكان البلاد الأوربية الباردة شجعان ولكن تنقصهم الهمة لذلك يخنعون ويخضعون للقوى .أما الإغريق فنظراً لأنهم يعيشون في إقليم يقع في مركز متوسط بين الشمال والجنوب فهم يجمعون بين فضائل أهل شمال أوربا و أهل أسيا " – أرسطو "القرن الثالث ق.م ولقد اختفت كل هذه الأفكار خلال العصور الوسطى في أوربا المسيحية لإعتقاد الناس فيما جاء في التوراه عن الخليقة ، فاختلافات المناخ والتضاريس و تباين البشر في الشكل و الطباع من حكمة الله ولا نقاش في حكمة الله . وإذا كان هذا هو الرأي السائد في أوربا المسيحية فلم يكن كذلك في بلاد المسلمين فقد اهتم كثير من الكتاب و الفلاسفة و الجغرافين المسلمين بدراسة العلاقة بين البيئة و صفات جسم الانسان و مزاجة العقلي . ويمكن أن نعرض جانبا من هذه الدراسة في مقدمة ابن خلدون وفي "مروج الذهب للمسعودي وفي "عجائب المخلوقات " للقزويني ، ولعل ابن خلدون هو أفضل من عالج الموضوع من كُتاب العربية فهو ثاقب النظرة واضح المنهج غزير المادة بل أنه يتفوق على كثير من كتاب عصر النهضة الأوربية في هذا المجال . فلأول مرة يربط ابن خلدون بين حوداث التاريخ و الجغرافية محدداً العوامل الجغرافية التي تؤدي إلى قيام الحضارة و ارتقائها وتلك التي تؤدي إلى تدهورها ، ويتحدث ابن خلدون عن اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الأثار في أبدان البشر و أخلاقهم .

لقد سبق توضيح فكرة أن المعمور في هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال ، ولما كان أهل السودان ساكنين في الاقليم الحار و استولى الحر على أمزجتهم و في أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم و اقليمهم فتكون أسرع فرحاً

---

(١) راجع a. Demoulins, E., Comment la route crée le type sociale, Paris, 1903.
b. Herbertson, D., Life and Work of F. Leplay, London, 1950.
c. Tatham, G. «Geography in the Nineteenth Century»—Geography in the Twentieth Century, Ed. by G. Taylor, London, 1950 P. 64 and after.
d. Buckle, H. History of the civilization in England, 2 vols· 1925·—1931.

٧

وسروراً و أكثر انبساطاً ،والأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ، وجد الفاقدين للحبوب من أهل القفار أحسن حالا في جسدهم و أخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش فألوانهم أصفى و أبدانهم أنقى و أشكالهم أتم و أحسن و أخلاقهم أبعد عن الإنحراف و أذهانهم أثقب في المعارف و الإدراكات "٣١".

يوضح لنا ابن خلدون في كتابه المقدمة ، ويقول أن كتابات الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي ، وأنها محفوظة بعنصر الماء كأنها عنبه طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلفة على سائرها ، وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض ، وهذا ليس بصحيح وأنما النحت الطبيعي قلب الأرض ، ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من ثقل وماعدا ذلك من جوانبها و أما الماء المحيط به فهو فوق الأرض وإن قيل في شيئ منها إنه تحت الأرض فبإضافة إلى جهة أخرى منه ، وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط عنصر الماء من بها من جميع جبهاتها بحراً يُسمى البحر المحيط ، ويُسمى أيضا لباية بتفخيم اللام الثانية ويُسمى أوقيانوس أسماء عجيبة ويُقال البحر الأخضر و البحر الأسود ثم أن هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفار و الخلاء أكثر من عمرانه والخالي من جهة الجنوب من أكثر من جهة الشمال وإنما المعمور منه أميل إلى الجانب الشمالي على شكل سطح كروي ينتهي من جهة الجنوب خط الأستواء ومن جهة الشمال خط كروي وراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري الذي بينهما سد يأجوج ومأجوج وهذه الجبال مائلة إلى جهة المشرق والمغرب إلى عنصر الماء بقطعتين من الدائرة المحيطة ،هذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور منه بمقدار ربعة[٨].

يحاول ابن خلدون أن يعرض لنا وصف الأرض بما فيها من مياه وبحار و أنهار بعض المُسميات للبحار الموجدة فيها .

وإذا نظرنا لرؤية ابن خلدون في تقسيم الأرض نجد أنه قسم الأرض إلي سبعة أقاليم كما قسمها بطليموس في الجغرافيا وصاحب كتاب زخار من بعده ، فالإقليم الأول أطول مما بعده وهكذا ،والثاني إلى أخرها فيكون السابع أقصره أقتضاه وضع الدئرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي و لكل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه .

ويذكرلنا ابن خلدون أن هذا البحر المحيط يخرج من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضايق في عرض اثنى عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريق يُسمى الزقاق

[٨] المقدمة ،ص ٣٤، ٧٤ ،٨٧.

ثم يذهب مشرقاً و ينفسخ إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدأة وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند خليج أفريقية ثم برقة إذ الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الأفرنجة ثم الأندلس إلى طريق عند الزقاق قبالة طنجة ويُسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ، وقال بعض الجغرافين ويخرج من جهة الشمال مجران آخران من خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقاً في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنيطينية ثم ينفسخ في عرض أربعة

أميال ويمر في جية ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنيطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيجد بحر نطيش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى بلاد الخزرنة على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعلى الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس [٩].

يحدد ابن خلدون الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبي ،لماذا؟وذكر ابن خلدون السبب في ذلك وهو :-

أن الأقليم الأول والثاني من الأرض أقل عمرانا مما بعدهما وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما وأمم هذين الأقليمين و أناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة و أمصاره ومدنه ، كذلك و الأقليم الثالث والرابع ومابعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أو معدومة وأممها وأناسيهما تجوز الحد من الكثرة و أمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً والعمران فيها مندرج مابين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله ، وقد ذكر بعض الحكماء أن ذلك لإفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤوس .

وقد بين ابن خلدون سبب كثرة العمارة فيما بين الأقليم الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الأقليم الخامس والأقليم السابع [١٠]، ويوضح لنا ابن خلدون في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشروالكثير في أحوالهم ، حيث يرى ابن خلدون أن جنوب الأرض يتمتع بالحر وشمالها يتمتع بالبرودة ،لما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد وجب أن تندرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً فالأقليم الرابع أعدل العمران، والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الأعتدال والذي يليهما والثاني والسادس بعيدان من الأعتدال والأول والسابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطه مخصوصة بالأعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى التنبؤات فإنما

---

[٩] المقدمة ،ص ٣٤

[١٠] المقدمة ، ص ٣٨

توجد في الأكثر فيها ولم نقف على خبر بعثة الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خُلقهم ، وأخلاقهم قال تعالى " كنتم خير أمة أُخرجت للناس " وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الأعتدال لهم فنجده على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغمون في استحادة الآلآت والمواعين و يذهبون في ذلك إلى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الإنحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء هم أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانين ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات [١١].

وإذا نظرنا في محور الجغرافيا البشرية وبخاصة في موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة وفلسفة الحتم الجغرافي ، نجد أن الانسان والبيئة وتفاعلهما وتبادل التأثير بينهما هو أحد محاور الدراسات الجغرافيا البشرية ، فقد تشعبت هذه وتعددت الفلسفات حول أيهما "الانسان ،أم البيئة الطبيعية " ، أكثر تأثيرا و فعالية في تغير الملامح الجغرافية والحضارية لسطح الأرض .

، ومن بين تلك الفلسفات التي استقطبت اهتمام الجغرافيين و غيرهم فلسفة الحتم الجغرافي والفلسفة الإمكانية والفلسفات المعتدلة .

وكان ابن خلدون من أكبر دعاة الحتمية الجغرافية وفلاسفتها والعاملين على نشرها . وقد استفاد كثيراً من اطلاعاته الواسعة لمؤلفات من سبقة ، سواء عرباً ومسلمين او إغريقاً ورومان ، وتأثر بنظرياتهم وأفكارهم .ولعل فلسفته الحتمية كانت حصيلة هذا الإطلاع الواسع والقرارات المكثفة ، فضلاً عن أصالته الفكرية ورحلاته الميدانية في آسيا و أفريقيا – فقد ساعدته هذه الخلفيات في شرح العلاقة بين الإنسان من جهة والبيئة الطبيعية من جهة أخرى ، ومدى الارتباط والتفاعل بينهما ، وكانت حصلية ابن خلدون البحثية إيمانه الشديد بإن البيئة بمختلف عناصرها تؤثر في الإنسان وتحتم نمط سلوكه وحياته [١٢].

وقبل أن نبدأ الحديث في النصوص الورادة في مقدمة ابن خلدون عن فلسفة الحتم الجغرافي ينبغي أن نستعرض وبإيجاز فحوى هذه الفلسفات ومنطوقها ، خاصة التي شغلت أذهان المفكرين منذ قرون وحتى وقتنا الحاضر ، وشارك في طرحها ومناقشتها علماء من مختلف الأجناس والبلدان .

---

[١١] المقدمة ، ص ٦٥

[١٢] المقدمة ،ص ١١

، ويُمكننا أن نطرح جزئية مهمة عن الحتمية الجغرافية بمفهومها البيئي والفلسفي عند ابن خلدون :- فالحتمية بمفهومها الفلسفي أو الحتم البيئي أو الحتم الجغرافي تعني تحكم البيئة الطبيعية في الإنسان وسيطرتها عليه .

فهي تؤثر في خلقته وشكله ونمط حياته وسلوكه و افعاله وكافة الأنشطة والفعاليات التي يمارسها أو يمتهنها على سطح الأرض . والبيئة هذه هي كل ما يكتنف الأنسان ويحيط به من ظاهرات طبيعية كالموقع والمناخ والتربة ومظاهر السطح والغطاء النباتي والثروة الحيوانية الطبيعية وغيرها .

وفي حقيقة الأمر ليس هناك من العلماء والفلاسفة من ينكر دور الظاهرات الجغرافية كعامل بيئي في نشاط الإنسان وسلوكه وطباعه وتوجهاته الأقتصادية و أنماطه الاجتماعية ، ولكن إلى أي مدى يصل هذا التأثير ؟

وللإجابة على هذا السؤال لدينا عدة محاور ، المحور الأول نجد أن الإغريق هم أول من أرسى دعائم الحتمية و أشاروا إلى دعائم الحتمية و أرجعوا التباين في البشر وسلوكهم و طباعهم إلى المؤثرات البيئية ومن الفلاسفة الذين كتبوا في ذلك هيبواقراط أو أبو قراط "٤٢٠ ق .م " الذي ناقش تأثير الهواء والماء و المكان على الانسان .كما ردد أرسطو "٣٨٤- ٣٢٢ ق .م " آراءه الحتمية في كتابه "السياسة " حيث فسر قيام مدينة روما وتطورها وقوتها بعوامل طبيعية .وتوجد مثل هذه الأفكار عند كثير من المفكرين البارزين المحدثين من أمثال مونتسكيو في النصف الثاني من القرن السابع عشر في مؤلفه "روح القوانين " حيث رأى أن المناخ الحار هو سبب الجمود في الدين و العادات و التقاليد و القوانين في الأقطار الشرقية .كما حمل الأفكار الحتمية مفكرون من كافة التخصصات كعالم الأحياء السويسري ارنست هيكل الذي أرسى قواعد علم جديد باسم الإيكولوجيا "وسميت بالإيكولوجيا العميقة لأنها تبحث بعمق في العلاقة بين الانسان والبيئة "،أو علم التنبؤ أي التكيف مع البيئة . وفي علم التاريخ أعتقد بكل بالحتمية اعتقادا منه بأن ذلك خير من يرفع التاريخ إلى مستوى العلوم الطبيعية القائمة على السببية ، وسعى في ذلك للتوصل إلى قوانين و أنظمة تتحكم بالأحداث التاريخية ليجعل من التاريخ علما ، فقد رأى أن الطبيعة هي التي تحدد بنفسها الزمان و المكان و الكيفية لنشاط الانسان .وبعبارة أخرى أن القوى الطبيعية هي صاحبة السيادة.

وهناك من الحتميين الجغرافيين من أمثال" ريتر "، ورتزال الألمانين وديمولان الفرنسي والين سمبل وهنتجتون الأمريكين وغيرهم .فقد تمثلت أراء ديمولان مثلاً في كتابه المشهور كيف يخلق الطريق "الطراز الاجتماعي[١٣].

حاول فيه إثبات أن المكان يصوغ شحصية الجماعة ونظمها الاجتماعية ، أو أن البيئة تشكل المجتمع . أما هنتجتون فهو صاحب الحتمية المناخية حيث يقول " لقد حدثت تغيرات كبيرة في المناخ في

[١٣] عبد الفتاح وهيبة ، جغرافيا الانسان ، مرجع سبق ذكره ،ص ١٧

الأزمان التاريخية وقبل التاريخية ، وأن تلك التغيرات قد أثرت بصورة عميقة على تاريخ وطبيعة الحضارات ، وتأتي ألن سمبل على رأس غلاة المتطرفيين للحتمية والمنادين بسيطرة البيئة وبسلبية الانسان .وقد أخذت أفكارها الحتمية عن أستاذها راتزال .فقد قالت عن البيئة وأثرها في الانسان في كتابها " تأثيرات البيئة الجغرافية " عام ١٩١١م ما يأتي " الانسان نتاج سطح الأرض ، وليس معنى هذا أنه مجرد ابن لها أوجزء من ترابها ، ولكن معناه أن الأرض أرضعته ، وعذته ، وحددت واجباته ، ووجهت أفكاره ، لقد تغلغت في عضامة ولحمه وروحه وعقله .

هذه مقتطفات من أراء وأفكار وكتابات بعض قادة الحتمية قديما وحديثا .

أما اذا نظرنا في أراء ابن خلدون عن الحتمية فقد كتب الكثير عن أفكار الحتمية الجغرافية وتأثير البيئة وسيطرتها على الانسان و تشكيل خصائصه الجسمية وتوجيه نشاطاته وتحديد ملامحه ، فقد أوضح في مقدمته أثر درجات الحرارة العالية والمنخفضة على أخلاق البشر . وأشار كذلك إلى العلاقة بين بنائهم البيولوجي ونظرية التطور الاحيائي وطبيعة الأقاليم التي يعيشون فيها .فعزا سواد بشرة سكان الأقاليم المدارية إلى الإفراط الحر فيها ، كما عزا بياض بشرة سكان العروض العليا إلى افراط البرد فيها ومايتبع ذلك من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعر . وكتب ابن خلدون عن اخلاق سكان الأقاليم المدراية في أفريقيا التي تتميز بالخفة والطيش وكثرة الطرب ويعود ذلك إلى استيلاء الحر على أمزجتهم ، في حين أن سكان البلاد الباردة يتصفون بالجدية والكآبة . وهناك عرض في مقدمة ابن خلدون عن " المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم " . أيضا عرض ابن خلدون "أثر الهواء في أخلاق البشر " وفي مقدمتة أيضا عرض "أختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وفي أخلاقهم .فالحتمية الجغرافية لها أثر كبير على أخلاق البشر وألوانهم وسلوكهم و أعمالهم فكل أقليم من الأقاليم السبعة التي قام بتقسيمها ابن خلدون لها صفات ومميزات معينة ،فمثلا أوربا لها صفات معينة من حيث لون البشرة والأخلاق والأقوات ، وأسيا لها صفات معينة ،وكذلك قارة أفريقيا وخاصة المناطق التي تتميز بدرجات حرارة شديدة جدا القريبة من خط الأستواء حيث يغلب عليهم الغلظة ، فمثلا صفات أهل السودان و أخلاقهم يختلفون عن صفات أهل مصر ،وغيرهم من المدن ، وكذلك طبيعة المكان أو الموقع الذي نشأ فيه الأنسان يؤثر على طبيعة عمله ومدخراته و أخلاقه ، فنجد في أوربا يقومون بتخزين المحاصيل و الأقوات نظرا لبرودة الهواء ،أما البلاد الحارة لا تقوم بتخزين المحاصيل و الأقوات ، فالحتمية الجغرافية ليست كلمة نرددها بل هي واقع له تأثير ملموس على حياة و أخلاق البشر على حسب وصف ابن خلدون .

ويمكننا أن نعرض أفكار ابن خلدون عن هذه الظواهر والعلاقات الجغرافية بين المناخ والانسان، حيث يقول ابن خلدون :-

"أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال . لما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط ، فيكون معتدلا ، فالاقليم الرابع أعدل العمران، فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني و الملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالإعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا ، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها ، وأما الأقاليم البعيدة من الأعتدال مثل الأقليم الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الأعتدال في جميع أحوالهم .فبناؤهم من الطين والقصب ، وأقواتهم من الذرة والعشب ، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود ، وأكثرهم عرايا من اللباس وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى لينتقل عن الكثير من السودان أهل الأقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ، ويأكلون العشب ، وأنهم متوحشون غير مستأنسين ،يأكل بعضهم بعضا ، يرجع ابن خلدون السبب في ذلك هو أنهم بعيدون عن الأعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك ، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا فلا يعرفون نبؤة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الأعتدال .[١٤]

وعن تأثير الحر وهواء الأقاليم الحارة في بشرة الانسان يقول ابن خلدون في مقدمته ما يأتي :-

" وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الأقاليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامته عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد وتسود جلودهم لإفراط الحر ، ونظير هذاين الأقليمين مما يقابلهما من الشمال الأقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال عامة الفصول فتبيض ألوانهم وتنتهي إلى الزعرورة ، ويتبع ذلك ما يقتضية مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور"تعني نعومة شعر رؤسهم " ، وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم ، فالأول والثاني للحر والسواد والسابع للبرد والبياض ، ويسمى سكان الجنوب من الأقليمين الأول والثاني بإسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفه على الأمم المتغيرة بالسواد ، وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء .

كما أننا نتابع أراء ابن خلدون في تأثير الجغرافيا على الأخلاق و يواصل كتابته عن تأثير البيئة الطبيعية فيقول :-

[١٤] المرجع السابق ،ص ١٨

"أما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الأعتدال في خُلقهم و أخلاقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للإعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والمُلك فكانت فيهم النبوات والمُلك والدول والشرائع و العلوم والبلدان و الأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال[١٥].

ولا يقتصر تأثير البيئة عند ابن خلدون في الانسان من حيث أجناسة و سلالاته ، وسلوكه وطباعه ، ونشاطه وأفعاله، وإنما يتعدى ذلك إلى أثر الموارد البيئية على نمط الحياة وشكل العمران ، فيقول ابن خلدون :-

"في اختلاف الخصب والجوع ، وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم ، حيث يرى ابن خلدون أن هذه الأقليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ، ولا كل سكانها في رغد من العيش ، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران ، وفيها الأرض الحارة التي لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل أهل الحجاز وأهل الجنوب من اليمن والساكينين بصحراء المغرب ، مثل العرب الجائلين في القفاز ."

ويبالغ ابن خلدون في تأثير البيئة على الانسان مبالغة شديدة حتى فاق من سبقه من فلاسفة الحتمية الجغرافية ، فهو يربط بين الطعام والذكاء ، ويفسر فطنة و ذكاء بعض الشعوب إلى نوع الأطعمه التي يتناوله ، وفي ذلك يقول "فإننا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة والأدم والفواكهه ، يتصف فيها غالبا بالخمول العقلي والبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم ، وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم و الحنطة"نوع من أنواع الأطعمة " مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس والعرب من أهل القفاز الفاقدين للحبوب والأدم ويقتصرون على الألبان هم أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش ، فألوانهم أصفى و أبدانهم أنقى و أشكالهم أتم و أحسن وأخلاقهم أبعد من الأنحراف و أذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات ، كذلك أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين في الأدم والبربر مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة و غالب عيشهم الذرة فنجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول ، وخفة الأجسام وقبول التعليم مالايوجد لغيرهم [١٦].

وإذا نظرنا في رأي ابن خلدون فيم يخص أثر الهواء في أخلاق البشر ،نجد أنه يقول قد رأينا من خُلق السوادن على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فنجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر ، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقررفي موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه و تكاثفة .

---

[١٥] المقدمة ،مصدر سبق ذكره ،ص٦٦

[١٦] المقدمة ،ص ٦٧

وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبحار مخلخلة له زائدة في كميته ، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور مالا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب عن الحرارة الغريزية التي يبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجة فتفشي الروح وتجئ طبيعية الفرح . وكذلك المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها و اتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح و ربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور . ولما كان أهل السودان ساكنين في الأقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم واقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الأقليم الرابع أشد حراً فتكون أكثر تفشيا وتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا ويجئ الطيش على أثر هذه .

وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر و أشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة . وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الأقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائه لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول ، و اعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبة منها ، كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من أسواقهم .

ولما كانت ناس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف نرى أهلها مطرفين اطراف الحزن ، وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء السلع وما يحتاجه من الأقوات .

"ويرى ابن خلدون أن الهواء له أثر كبير في أخلاق البشر والله هو الخلاق العليم ".

وإذا قمنا بتحليل أفكار ابن خلدون في محور الجغرافيه وعلاقتها بالعمران ، نجد أن مقدمة ابن خلدون تحتوي على أفكار ودراسات أصيلة تعتبر الكتابة عنها حاليا من القضايا والركائز الأساسية في تشكيل هيكل أدبيات جغرافية العمران البشري عند ابن خلدون ، فنشأة المدينة ودراسة موضوعها وموقعها ومراحل نموها وعلاقاتها الاقليمية وأساسها الاقتصادي وتصنيفها الوظيفي هي ظاهرات عالجها ابن خلدون في مقدمته ، وإنها في ذات الوقت تشكل المحاور الأساسية لجغرافية العمران التي كثيرا ما يشار إليها في الكتابات الجغرافية المعاصرة على أنها وليدة هذا القرن .

ولغرض إثبات أصالة العلامة ابن خلدون نورد فيما يلي نماذج من أفكاره و آرائه التي أصبحت فيما بعد منطلقات لنظريات وقوانين وقواعد تشكل الخلفية لأساسيات جغرافية العمران وسيكون التأكيد على الموضوعات الآتية :-

١-نشوء المدينة ومراحل تطورها .

٢-موضع المدينة وموقعها .

٣-العلاقة بين المدينة و اقليمها .

٤-التصنيف الوظيفي للمدن و أساسها الاقتصادي .

وإذا نظرنا في موقف ابن خلدون عن العمران البشري نجد أنه يؤكد على أن التاريخ هو عبارة عن الاجتماع الانساني الذي يعتبره ابن خلدون هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات و أصناف التغلبات للبشر بعضهم الى بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول و مراتبها وما ينتحله بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الأحوال .

ولما كان الكذب متطرفا للخير بطبيعته وله أسباب تقتضيه ، التشعبات للأراء والمذاهب فإن النفس عند ابن خلدون إذا كانت على الاعتدال في قبول الخير أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صده من كذبه ، وإذا كان حاضرها تشبع الرأي ، أو نحله قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاء والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله ، ومن الأسباب المقتضبه للكذب في الأخبار أيضا الثقة بالناقلين و تمحيص ذلك يرجع إلى التعديل و التجريح ، ومنها الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب [١٧]

" يرى ابن خلدون من خلال دراسته وقرائته لكتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل العالم كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبه طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح و أنما النحت الطبيعي قلب بالأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض بالأضافة إلى جهة أخرى منه. وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر.

وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط عنصر الماء من بها من جميع جهاتها بحرا يُسمى البحر المحيط ويُسمى أيضا لبلايه بتفخيم اللام الثانية ويسمى أوقيانوس أسماء عجمية"نسبة الى العجم " ويقال أن البحر الأخضر والأسود ثم أن هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفاز والخلاء أكثر من العمران والخالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال وأما المعمور منه أميل إلى الجانب الشمالي على شكل مسطح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء ومن جهة الشمال إلى خط كروي وراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري بينهما سد يأجوج ومأجوج ،وهذه الجبال مائلة إلى جهة المشرق وينتهي من المشرق إلى المغرب إلى عنصر الماء

---

[١٧] المقدمة ،ص ٢٨

أيضا بقطعتين من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور من مقدار ربعة وهو المنقسم بالأقاليم السبعة وخط الأستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب إلى الشرق وهو طول الأرض وأكبر خط في كرتها كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلمائة وستين درجة والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع و الذراع أربعة وعشرون إصبعاً والإصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها ببعض ظهرا لبطن وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الأرض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الأستواء أربع وستون درجة والباقي منها خلاء لا عمارة فيها لشدة البرد والجمود كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر [١٨].

ويرى ابن خلدون أن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وعما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال مثل بطليموس في كتاب "الجغرافيا" وصاحب كتاب " زخار " من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة أقاليم أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق و المغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول فالأقليم الأول أطول مما بعده و هكذا الثاني إلى آخرها فيكون السابع أقصر لما أقتضاه وضع الدائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي وفي كل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخير عن أحواله وأحوال عمرانه ، وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج من جهة المغرب في الإقليم الرابع ، البحر الرومي و يبدأ في خليج متضايق في عرض الزقاق ثم يذهب مشرقاً و ينفسخ إلى عرض ستمائه ميل ونهايته في أخر الجزء الرابع من الأقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخا من مبدأه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم أفريقية ثم برقة إذ الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الأفرنجة ثم الأندلس إلى طريق عند الزقاق قبالة طنجة ويُسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية و يخرج منه من جهة الشمال مجران آخران من خليجين أحداهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسخ في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلا ويُسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج منه فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهوبحر ينجرف من هنالك في مذهبه إلى ، ناحية الشرق فيمر

[١٨] المقدمة ،ص٣٦

بأرض هرقلة وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجات والروس .[١٩]

لقد قمنا بعرض أفكار ابن خلدون عن كيفية تقسيم القارات والبحار والسواحل من المشرق إلى المغرب ، وكيف عرضها لنا ابن خلدون بدقة متناهية وكأنه عالم جيولوجي معاصر دقيق في أفكاره وتصوراته وتقسيماته للكرة الأرضية ، ولجغرافية المكان وأثرها على الجانب الأخلاقي .

يُمكننا أن ننتقل إلى نقطة أخرى وهي تقسيم ابن خلدون للأرض حيث يرى ابن خلدون أن الربع الشمالي أكثر عمرانا من الربع الجنوبي من الأرض ، وذكر ابن خلدون السبب في ذلك هو أن الأقليم الأول والثاني من الأقاليم المعمورة أقل عمرانا مما يعدهما وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما وأمم هذين الأقليمين وأنسيهما ليست لهم الكثرة البالغة وأمصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أو معدومة و أممها واناسيهما تجوز الحد من الكثرة وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً والعمران فيها متدرج مابين الأقليم الثالث والأقليم السادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لإفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها من سمت الروؤس ، ويوضح ابن خلدون ذلك ببرهانه ويتبن لنا من سبب كثرة العمارة فيما بين الأقليم الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الأقليم الخامس والسابع هو اعتدال الهواء .

كما يسعى ابن خلدون لتوضيح أن قطبي الشمال و الجنوب إذا كان على الأفق فهنالك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من المشرق والمغرب وتسمى دائرة معدل النهار وقد تبن في موضعة من الهيئة أن الفلك الأعلى متحرك من المشرق إلى المغرب حركة يومية ويحرك بها سائر الأفلاك حركة يومية ويحرك بها سائر الأفلاك في جوفه قهراً و هذه الحركة محسوسة وكذلك تبين أن للكواكب في أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب إلى المشرق وتختلف آمادها باختلاف حركة الكواكب في السرعة والبطء وممرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها دائرة عظيمة من الفلك الأعلى تقسمه بنصفين وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثنى عشر برجاً وهي على ما تبين موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطين متقابلتين من البروج هما أول الحمل وأول الميزان فتقسمهما دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار إلى الشمال وهو أول الحمل إلى آخر السنبلة ونصف مائل عنه إلى الجنوب وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع نواحي الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب إلى المشرق و يُسمى خط الاستواء"على وصف ابن خلدون " .[٢٠]

---

[١٩] المقدمة ،ص ٣٧

[٢٠] المقدمة ، ص ٧٠

واستكمالا لما سبق ذكره نوضح ماذا تعني كلمة " السببية والحتمية عند خلدون " لقد اعتمد ابن خلدون في تعميم استقراءاته من الحوادث الاجتماعية على مبدأين أساسين ، استنتجهما بدورهما من تأمل الوقائع والأحوال على مر العصور والأجيال ، هذان المبدأن هما مبدأ السببية ومبدأ الحتمية . فمبدأ السببية عنده يقرر أن لكل معلول علة والعكس صحيح، وأن العلل المتشابهه تُحدث المعلولات . ويدل ذلك على أن جميع الحوداث الاجتماعية خاضعة للقوانين ،و يقول ابن خلدون :" أعلم أرشدنا الله وإياك ، أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، ولذلك قرر أن التاريخ"في باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع و أسبابها عميق.

لا شك أن علماء الجغرافية العرب أيام الحضارة العربية والإسلامية قد اهتموا بالبحث في الكرة الأرضية وتقيسيماتها إلى أقاليم ، بعد أن ترجموا كتاب الجغرافية للعالم بطليموس "ت ١٦٨م [٢١]إلى العربية وأفادوا منه ،إذ أن المؤرخ والجغرافي العربي أبو الحسن بن علي المسعودي "ت ٣٤٥هجرية " قد لخص هذا الكتاب ، فضلا عن اطلاع هؤلاء العلماء والفلاسفة العرب على كتاب الطبيب اليوناني ابُقراط "في القرن الرابع قبل الميلاد "في الموسوم الأهوية والمياه والبلدان ، الذي ترجمه إلى العربية "حنين ابن اسحاق وحبيش الأعسم" [٢٢] ، إذ بين أبقراط تأثير المناخ على خلق الناس وعلى أنظمة الحكم ، أو ما يُسمى الجغرافية الطبيبة "تعني تأثير الهواء على انتشار الأمراض من عدم انتشارها" ،ويُعتبر كتاب ابقراط هذا من روائع المؤلفات الطبيبة في مجاله ، إذ عالج فيه علاقة المناخ بالإنسان . اذ نجد في هذا الكتاب نصاً يتحدث فيه عن هذا الموضوع بشكل مباشر ، وما ينجم عن هذا التأثير من مواقف أخلاقية وقيمية وحضارية وفكرية إذ يقول ابقراط "بصدد المقارنة بين شعوب الشرق الأسيوية والغرب "الأوربية "،ما نصه "أريد المقارنة حيث يقول يمكننا المقارنة بين مختلف الشعوب حيث يمكن ملاحظة الفوارق المزاجية والأخلاقية بين الأمم، حيث نستطيع فهم العوامل التي تجعل الانجليز يتصرفون بتحفظ، والألمان بصرامة، والفرنسيين بغرور، والإيطاليين بعصبية،اتساءل لماذا يطغى الخجل على اليابانيين، والحذر على الكوريين، والسوقية وسرعة الإختلاط على الأمريكان!؟ وهذا التنوع – في الأمزجة والأخلاق – لفت انتباه العديد من الرحالة والمؤرخين على مر العصور.

---

[٢١] ١-لمعرفة علم الجغرافية وتطوراته منذ القديم أيام البابلين والمصريين واليونان وغيرهم ،يرلجع ،جورج سارتون ،تاريخ العلم ، متعدد الأجزاء ،القاهرة ،ولكن الحقبة الاسلامية موضوع بحثنا لم يتحدث عنها سارتون في تاريخه للعلم ، كذلك يراجع ،ابن خلدون ،المقدمة ،بيروت ١٩٨١ ،ص ٣٦ . ويقال أن الفيلسوف الكندي بحسب رواية القفطي .أنه قد نقل هذا الكتاب لبطليموس الى العربية ،يراجع جمال الدين القفطي ،تاريخ العلماء ،بتاريخ الحكماء لبنان ، ص ٩٨ ،ولمعرفة محتويات تلخيص المسعودي لكتاب ،بطليموس هذا في الجغرافية الذي ذكره في كتابه المجسطي ، يراجع النص ،في كتاب "أحمد عبد العاطي السامرائي "، من أعلام العلماء اعرب في القرن الرابع الهجري ، ط١ ،بغداد ٢٠٠٣ ،ص ٢٦٤ – ٢٦٦.

[٢٢] يراجع :كمال السامرائي ،مختصر تاريخ الطب العربي ،ط١ ، بغداد ١٩٨٤ ،ج١ ،ص ١١٥ ، كما أن كتاب ابقراط هذا ،حققه ونشره شبلي شميل ، القاهرة ،١٩٨٥م .

فقد تحدث عنه ابن خلدون في "المقدمة" وأبقراط في "القوانين" وأرسطو في "السياسة" – والعديد من المفكرين الأوروبيين مثل ميكافيلي الإيطالي وأرثيو الانجليزي ومونتسيكيو الفرنسي، وهو جزء مما يُسمى "بالجغرافيا الاجتماعية" التي تهتم بدراسة تأثير المناخ وظروف البيئة على أمزجة وأخلاق الناس – مع الأخذ بعين الإعتبار تأثير العوامل الاخرى[٢٣].

ونظراً لضخامة الموضوع سأركز فقط على آراء العلماء المسلمين في هذا المجال،فابن خلدون مثلا قسم شعوب الأرض إلى سبعة أقاليم تبدأ من الجنوب إلى الشمال. فسكان الجنوب – حسب تقسيمه – يعيشون في الاقليمين الأول والثاني حيث حرارة الشمس وسواد البشرة وصعوبة المزاج ،ثم تأتي الأقاليم الثلاثة المتوسطة (الثالث والرابع والخامس) وأرضها أكثر عمراناً وسكانها أعدل أخلاقاً وفيهم ظهرت النبوءات والحضارات والشرائع والعلوم ، ومن أهلها الروم والعرب والفرس وأهل الصين والهند، ثم يأتي الاقليم السادس ثم السابع في الشمال البارد وسكانهما من البيض الصقالبة والأفرنجة حيث زرقة العيون وجلافة الطبع وصهوبة الشعور.

أما علي الطاهر فيمتدح في كتابه "المفصل في تاريخ العرب" طبيعة اليمن ومناخها "وأرض بهذا الخير والاستقرار لابد أن تؤثر على أجسام وعقول أهلها فتجعلهم انشط شعوب جزيرة العرب في طلب العمل،

وكسب الرزق وصيرتهم قوماً لايرون الاشتغال بالحرف عيباً أو بالمهن بأساً، ولو كانت أرضهم على شاكلة الحجاز ونجد لما صار أهل اليمن كذلك. ويستدل على هذا بأن القحطانيون الذين خرجوا من اليمن وسكنوا نجد وبادية الشام أصبحوا يأنفون من الاشتغال بالحرف والصنائع ويعيشون على تربية الإبل مع انهم يمنيون في الأصل" ثم يتحدث عن البادية وقسوتها والصحراء وحرارتها حتى يصل إلى (الطائف) فيقول عنها:

"وبسبب تأثير الطبيعة في طباع الناس اختلفت طباع أهل الطائف عن طباع أهل مكة وسبب ذلك أن الطائف مرتفعة معتدلة بها مياه وأشجار وأرضها سعيدة فرحة لا تسودها كآبة البادية ولا عبوس البيداء فصارت أخلاق أهلها أقرب إلى أخلاق أهل اليمن مع إنها إلى مكة أقرب"!.

وإذا نظرنا في هذه الجزئية ،نجد أنها وصف من علي الطاهر لأهل اليمن حيث وصفهم بأنهم أنشط شعوب الأرض كما أنهم لديهم القدرة على النشاط والحركة في السعي لطلب الرزق فهم لايرون الإشتغال بالحرف أو المهن عيبا بل كل هذاه الأمور هي سعي لطلب الرزق، ونجد في اليمن حضارات قديمة عظيمة مثل سبأ ، والملكة بلقيس التى ذكر قصتها القرآن الكريم ،أما القحطانين من أهل اليمن يرون أن الأشتغال بالحرف والصنائع عيبا ،و أنهم يفضلون تربية الأبل ،ويذكر أيضا أخلاق أهل الطائف نجد أن

[٢٣] المقدمة ،طبعة البيان ،ص ١١٥٤

أخلاقهم أقرب إلى أخلاق أهل اليمن بسسب وفرة المياة وكثرة الأشجار والثمار ،مع أنها أقرب الى أهل مكة وأهل مكة أرضهم قليلة الماء والثمار فيغلب على أخلاق أهلها كأبة البادية وصعوبة العيش .

أما اليعقوبي فيتحدث – في كتاب البلدان – عن محاسن بغداد فيقول:

"وباعتدال الهواء وطيب التراب وعذوبة الماء حسنت أخلاق أهلها ونضرت وجوههم وتفتقت أذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم والأدب وظهر فيهم أرباب اللغة والدين والحديث واستقر فيها العلماء والتابعون والمحدثون".

وهذا وصف من اليعقوبي لأهل العراق ،حيث يتحدث عن اعتدال الهواء وطيب التربة و عذوبة الماء ،كان لها أثر كبير على أخلاقهم وصفاتهم وتفتح عقولهم مما جعلهم من أهل العلم و الأدب ونضرت وجوههم لكثرة الخير ووفرة الماء كما ذكر أيضا ابن خلدون في تقسيمه للمعمورة إلى سبعة أقاليم وذكر منها صفات أهل العراق.

ويقول المقريزي في المواعظ والاعتبار :

"ويلاحظ على أهل البشمور (بمصر) أن طباعهم أغلظ والبله عليهم أغلب وذلك لطبيعة أرضهم وغلاظة طعامهم، أما الاسكندرية فقربها من البحر واعتدال الحرارة والبرودة يصلح أمرهم ويرقق طباعهم ويرفع ذكاءهم" [٢٤].

وإذا نظرنا في هذه الجزئية نجد أن المقريزي يصف سكان أهل مصر ويصف طباعهم بأنها غليظة ،ويصف أهل الإسكندرية بأن قربها من البحر واعتدال الحرارة والبردوة جعلهم رقائق الطباع و ذكائهم شديد ولديهم القدرة على التفكير والأبداع حيث نجد في أرضهم مكتبة الأسكندرية التي هي منارة للعلم والعلماء ومقصد كل العلماء منذ قديم الأزل حتى وقتنا الراهن ،حتى كان يقصدها أفلاطون اليوناني لكي يتعلم منها ويكتسب العلم من مكتبة الأسكندرية .

بقي أن أشير إلى وجود عوامل اخرى (بجانب طبيعة الأرض والمناخ) تساهم في بلورة أخلاق الأمم كالدين والاقتصاد وتراكم الموروث، أضف لهذا أن الآراء السابقة قد تكون أقرب للواقع (في الماضي) منها للحاضر؛ فأجهزة التكييف – هذه الأيام – تلغي تأثير الطقس وترطب الحرارة، والمواصلات الحديثة تتجاوز تأثير التضاريس والتقييد بالمكان، (وأقرب دليل على هذا وفاة آلاف المواطنين في أوروبا بسبب الحر، ونجاة أهل الخليج بفضل "الاسبيليت" ورحلات البوينغ"!.

٤– التهيئة الحضرية و أوبئة البيئة عند ابن خلدون :–

يرى ابن خلدون أن جدلية البدواة والتحضر قائمة على تواجد البشر ،لأن الحاضرة هي من صنع البشر ، كما أن المدينة تمثل أرقى ما تواصلت إليه الأمم وبها تمايزت وتفاخرت وتطورت .

[٢٤] المقدمة ،طبعة البيان ،ص ١١٥٤

وعندما نخطط لبناء مدينة فينبغي علينا أن نأخذ في الإعتبار كل المقومات الحضارية والتراثية والثقافية للبلد الذي يحتضننا ،لما للوجود الحضري من ارتباط عضوي بالواقع البدوي ،فهو الأصل والمنبع والممد والمفيض على المدينة بمواده الخام ، ومنتجاته الفلاحية والزراعية والحيوانية ، وبيمنا ينتقل البدوي من عالم الفلح والزرع إلى عالم التنوع والتشكل و الكماليات يحدث حينذاك بالتوازي تطور البناء و التمركز ووضع الروافد و المتنقلات و الثقافات و العادات المختلفة لكي تستوطن جنبا إلى جنب في دائرة موسعة ومحصنة و مقننة تسمى المدينة .

وإذا نظرنا في مفهوم المدينة في التاريخ الإسلامي نجد أنها كانت تقوم على معايير هندسية واجتماعية و اقتصادية وبيئية تجعلها تضمن الحياة السعيدة و الرغيدة و الآمنة للمواطنين .

حيث يقول الكاتب الفرنسي موريس لومبار في كتابه " الإسلام في عظمته الأولى" واصفا الواقع المديني في العالم الاسلامي وخاصة في العصر العباسي " ماذا نقول عن بغداد التي خلال عدد أقل من السنين من "٧٦٢م" الى "٨٠٠م" انتقل عدد سكانها من بضع مئات إلى ما يقارب ٢مليون نسمة ،إلى جانب هذه التجمعات المدينية التي احتفظ معظمها بدوره كمدن كبيرة حتى عصرنا هذا ، ثمة مراكز دب فيها النشاط من جديد وبلغ اتساعها وسكانها و تأثيرها أبعادا لم تكن معروفة حتى ذلك الحين "ص ١١٠.

هذا التحول الهائل وبالرغم من الإمكانيات التقليدية التي كانت سائدة أنذاك جعلت من هذه المدينة مستقرا ومعاشا وتنوعا ثقافيا وعلميا وتجاريا وفلاحيا لا نظير له في التاريخ وفي نفس الوقت كانت مدينة صحية يطيب فيها الهواء ويقل الوباء والطاعون وما إلى ذلك مما كان يحتاج غيرها من المدن .

ويُعتبر ابن خلدون فيلسوفا وراصدا عمرانيا بإمتياز ،حيث أنه أول من أستعمل الاجتماع بمفهومه العلمي و اهتم بالعمران البشري وما يتسلل عنه من مظاهر وقوانين و أعراف وعادات ،في حين كان التركيز على نظرياته و آرائه حول الدولة وجدلية البدواة والحضر ،ولكن لم ينتبه الكثير إلى بعض الإلماحات الصحية والبيئية في تصوره للمدينة و البيئية في تصور ابن خلدون عن البيئة وكيفية الحفاظ على سلامتها بإعتبارها عنصرا مهما جدا في دعم التنمية وتحصيل الاستقرار لدى المجتمع والدولة معا .

٥-الأبعاد النفسية و الصحية للبيئة عند ابن خلدون :-

تحدث ابن خلدون في الفصل الخمسين من المقدمة عن مسألة مهمة وهي حصول المجاعات بالمدينة ووقوع الوفيات أكثر مما عليه في البوادي .

اذ المجاعات تكون بسبب الاضطراب و التوقف عن الانتاج الزراعي وهذا معقول وبسيط ،كما يكون سببها الاحتكار عند العوام،باستثناء احتكار الدولة للحبوب ،فيرى أنه ايجابي في حالة اهتزاز الاستقرار لأنها تكون الضامنة للتوزيع العادل للمؤونة بين السكان ؟

أما الوفيات فهي اما من جهة المجاعة و أما من جهة الأمراض المترتبة عنها ، فالأولى فلاحية والثانية صحية ،وهذه الأخيرة قد تؤثر على الأولى و تلغي دورها ،بإعتبار العنصر البيئي الصحي أخطر من الاحتكار .

يقول ابن خلدون " و أما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات ،أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل ، أو وقوع الوباء ،وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن و الرطوبات الفاسدة ، و إذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني ملابسة دائما فيسري الفساد مزاجه ، فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة ،وهذه هي الطواعين و أمراضها مخصوصة بالرئة ، وإن كان الفساد دون القوى و الكثير فيكثر العفن ويتضاعف ،فتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك "

فلقد وضع ابن خلدون هنا أصبعه على أهم عنصر مؤسس للمدينة ،قبل أشكال المباني وقبل التخطيط لفرص العمل و تنشيط المؤسسات العامة و الحكومية ، كما أنه وبكل وضوح يشير إلى مرض السل أو الدرن ومعه الربو وما يليه ، الذي يجتاح كثيرا من المدن غير مهيئة بيئيا ولا تتمتع بالقدر الكافي من الأُكسجين النقي ومعه أشعة الشمس ،وذلك حينما ركز على مرض معين هو أصل الأمراض البيئية ألا وهو مرض الرئة ،أي غياب التنفس السليم الذي سيوثر لا محالة على صحة المواطن الجسمية وصحته النفسية معا ،لأنه بقدر ما ضاق التنفس ضاقت معه النفس والتفكير وساء الخُلق وبدت مظاهر الاضطراب العصبي و الهذيان وما إلى ذلك [٢٥].

كما تقول القاعدة الطبية :" الهواء النقي ينعش ويجدد العقل L,air frais rafraichit l,esprit " "ولكن ابن خلدون لم يتوقف عند هذا الكشف الدقيق عن أمراض العمران البيئية و إنما سيذهب إلى اقتراح التهيئة الحضرية من الناحية الهندسية مع مراعاة الفضاء البيئي الكفيل بتزويد المدينة بنسبة كافية من الأكسجين مع ترك ممرات للهواء و الشمس لكي تنعش المدينة و أهلها .

وهذا ما لاحظة على أهل فاس القديمة من حيث ميلهم إلى الغم و القلق على الرزق وما إلى ذلك ، والسبب في هذا هو ضعف التهوية وغياب الشمس كليا عن تلك المباني القديمة ، باستثناء بعضها ذات الطابع الأندلسي ،التي تكاد تشبه القبور بسبب الظلام الدامس داخلها و البرودة الرطبة كما وصفها ابن خلدون .

ولتفادي هذا الوباء يقول ابن خلدون :" و لهذا تبين في موضعة من الحكمة أن تخلل الخلاء و القفر بين العمران ضروري ،ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد و العفن بمخالطة

---

[٢٥] محمد بنعيش ، أستاذ بكلية الاداب و العلوم الانسانية ، جامعة المغرب ، المنافسة الاجتماعية ... سلبياتها ومرتكزاتها الطبيعية ، بدون دار النشر، ٢٠١٩.ص ١.

الحيوانات و يأتي بالهواء الصحيح ، ولهذا أيضا فإن الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير ،كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب [٢٦].

وإذا نظرنا في هذه الجزئية ،نجد أن ابن خلدون يصف لنا وصفا واقعيا عن أنتشار الأمراض والأوبئة في المعمورة ،ويتحدث عن انتشار الأوبئة ويرجع ذلك إلى فساد الهواء وكثرة عدد السكان ،كما ذكر ابن خلدون في المقدمة أن الصين هي مصدر الأوبئة المنتشرة في المعمورة ،كما يشير إلى مرض الربو والسل والدرن ،ومرض الرئه الذي يصعب معه التنفس فيضيق معه النفس والتفكير وتسوء الأخلاق ، ويمكننا أن نعرض نموذج في الوقت الحاضر وهو انتشار فيروس كورونا الذي انتشر في المعمورة الذي يؤثر على تنفس الانسان و بالتالي يؤدي إلى وفاة الانسان ، وذكر ابن خلدون أسباب انتشار هذه الأوبئه و كأنه على دراية بما يحدث في العالم اليوم ،فمقدمة ابن خلدون تصلح لكل زمان ومكان، بسبب رؤيتة ابن خلدون الثاقبة و المتعمقة في أحوال العمران البشري ،كما أكد على ضرورة العمران البشري ،لأن الانسان لا يستطيع أن يلبي أحتياجاته بمفردة بل هو في تعاون مستمر مع الأخرين ،كما أكد ابن خلدون على أن الهواء النقي ينعش العقل ،و أكد على ضرورة التخطيط الهندسي للعمران وعمل ممرات للهواء والتنقل وعدم بناء المباني متلاصقة مع بعضها البعض ، مما يؤدي إلى انتشار الأمراض و الأوبئة كما هو الحال عند أهل فاس القديمة حيث يغلب عليهم الغم والقلق بسبب سوء التهوية وعدم دخول الشمس إلى داخل المنزل وضعف التهوية تكاد منازلهم تشبه القبور بسبب الظلام الدامس داخلها ورطوبة المنزل وشدة بردوته ،ويرجع السبب في ذلك وهو سوء التخطيط العمراني ،ويمكننا أن نذكر نموذج للتخطيط العمراني الحديث في مصر خاصة في المدن الجديدة نجد فيها ممرات واسعة ومنازل غير متلاصقة مع بعضها البعض مما يقل انتشار الأمراض و الأوبئة في المدن عن أهل الريف.

<u>الخاتمة :</u>

[٢٦] المرجع السابق ،ص ٢

تناول هدًا البحث العديد من الأفكار الهامة عند ابن خلدون ، التي وردت في المقدمة ، والتي أكد عليها ومنها على سبيل المثال الحتمية الجغرافية البيئية عند ابن خلدون وتأثيرها على حياة البشر ،و ألوانهم و أجسامهم وطبائعهم و صنائعهم ، و طعامهم وشرابهم ، و أن البيئة الجغرافية لها أثر في تكوين الفرح أو الحزن عند البشر .

كما شمل البحث أيضا أراء كلا من ارسطو و هيبوقراط ومونتسيكيو و شارلز داروين و بكل وفيكتر كزن الدِّين تناولوا الحتم الجغرافي من زوايا مختلفة .

كما عرض البحث بعض الانتقادات التي وجهت الى الحتمية البيئة ، وشمل أيضا الحتمة الجغرافية قديما و حديثا ، وشمل البحث أيضا التهيئة الحضرية و أوبئة البيئة عند ابن خلدون ،كدًلك تأثير البيئة الجغرافية على الحالة المزاجية والنفسية على البشر .

<u>أهم النتائج التي توصل اليها البحث :-</u>

١-أكد على أهمية الاجتماع الانساني وقال الاجتماع الانساني ضروي ، والانسان مدني بطبعه .

٢-أكد على أن البيئة الجغرافية لها تأثير كبير على الانسان من حيث عمله وقوت يومه ولون البشرة .

٣-قسم الأرض إلى سبعة أقاليم .

٤-الأقاليم الحارة يتميز أهلها بالبشرة السوداء ولايقومون بتخزين المحاصيل .

٥-الأقاليم الباردة يتميز أهلها بالبشرة البيضاء ويقومون بتخزين المحاصيل .

٦-رفض الاحتكار وقال إنه من الظلم الأكبر .

٧-أكد على أن العصبية أساس قيام الدولة .

٨-أكد على أن الدولة في تطورها تشبه تطور الكائن الحي .

١٠- أكد على الأُسس التربوية ومنها التدرج في العلوم و عدم الشدة على المتعلم .

١١- أكد على ضرورة التخطيط قبل بناء المدن ، ليسهل عملية التهوية حتى لا تنتشر الأمراض والأوبئة .

١٢- جغرافية البيئة وموقعها لها أثر كبير في أخلاق البشر ،فهناك أقوام متوحشين ،و أقوام معتدلين ،و أقوام يغلب عليهم العصبية والشدة والغلظة ،كل ذلك حسب الأقليم الجغرافي الذي نشأ فيه .

١٣- اكد ابن خلدون على البيئة الجغرافية لها أثر كبير في تكوين البشر .

أهم المراجع والمصادر :

١- ابن خلدون عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ،اشراف عام :داليا محمد ابراهيم ، دار نهضة مصر ،القاهرة ،ط١ ،٢٠١٤.

٢- عبد الفتاح وهيبة ،جغرافيا الانسان ،دار النهضة العربية للنشر ،بيروت ،لبنان ،١٩٨٠ .

٣- كمال السامرائي ،مختصر تاريخ الطب العربي ،بغداد ١٩٨٤.

٤-محمد بنعيش ،أستاذً بكلية الاداب و العلوم الانسانية ،جامعة المغرب ،المنافسة الاجتماعية سلبياتها و مرتكزاتها الطبيعية ،بدون دار النشر ،٢٠١٩.

المراجع الاجنبية :

(١) راجع

a. Demoulins, E., Comment la route crée le type sociale, Paris, 1903.
b. Herbertson, D., Life and Work of F. Leplay, London, 1950.
c. Tatham, G. «Geography in the Nineteenth Century»—Geography in the Twentieth Century, Ed. by G. Taylor, London, 1950 P. 64 and after.
d. Buckle, H. History of the civilization in England, 2 vols· 1925·—1931.